

الأنثروبولوجيون القدامى و استيعابهم لأصول الفكر الإسلامي

-قراءة في المفتاح-

أ. هشام بن سنوسي

جامعة جيجل

يُعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية، من المصادر التي أظهرت تأثيرها العام والعميق في الفكر الإسلامي؛ هذا الفكر نجدله حضوراً وتداخلاً مع الفكر الأنثروبولوجي، بل نكاد نجزم أنّ هذا الأخير ينبعمنهما، ليكون علماً إسلامياً بامتياز.

فكثيرٌ من رواد هذا الفكر — من علماء الأمة القدامى، رجعوا إليهما عن وعي تامفي كثير من الأفكار، والتفسيرات، والنظريات والآراء الأنثروبولوجية، والمعلومات الإثنوغرافية التي استطاعوا التوصل إليها، بعد أن استوعبوا اهتداءً واقتداءً مقاصد هذه الأصول.

وإذا كان البعض يوردهما ضمن المصادر غير المباشرة للفكر الأنثروبولوجي الإسلامي، فليس هناك من ينكر أنّ لهما تأثيراً أكبر من أن يحصر في نقطة واحدة.

إنّ محتوى علم الاناسة أو الأنثروبولوجيا، هو دراسة الإنسان وما يتصل به، ودراسة المجتمع البشري، والبحث في شؤونه الإنسانية، مذ وعى الإنسان ذاته، وبدأ يسعى للتفاعل مع بيئته ومجتمعه وأبناء جنسه. فالأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في

مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، وهو العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، محاولاً التنبؤ بمستقبل الإنسان بالاعتماد على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علماً متطوراً، يدرس الإنسان وسلوكه، وأعماله،⁽¹⁾ ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام، وأوجه الشبه والاختلاف بينه وبين أخيه الإنسان، ثم بينه وبين الكائنات الأخرى...

إنّ هذا الاهتمام اللافت بالإنسان، وما يختص به، كان دائماً محور الديانات، ورسالات الأنبياء والمرسلين، والكتب السماوية..، لقد وضع القرآن الكريم أسس هذا العلم، وجاءت الأحاديث النبوية موضحة لهذه الأسس.

ثم امتاز به الرحالة المستكشفون، والبلدانيون المسلمون، الذين جابوا مختلف الأصقاع من أجل البحث، والتنقيب، والمقارنة بين المجتمعات البشرية، مستندين في اهتمامهم هذا إلى مرجعية دينية وأخرى دنيوية، اقتضتها الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات الإسلامية؛ كاهتمام بدراسة أحوال البلاد المفتوحة وأهلها، وطبيعة المجتمعات، والديانات..، وهذا لجملة من الأسباب كإدارتها، وجباية الخراج منها، ولغايات علمية ومعرفية أخرى..، فبرز دور العلماء المسلمين، في وضع الكتب والمعاجم الجغرافية ك (معجم البلدان) لياقوت الحموي⁽²⁾، و (مسالك الأمصار) لابن فضل الله العمري⁽³⁾، و (نهاية الأرب في فنون العرب) للنويري⁽⁴⁾، و (عادات الشعوب) للمسعودي⁽⁵⁾، وكتاب (البلدان) لليعقوبي⁽⁶⁾، و (البلدان) للجاحظ.

وبالإضافة إلى اهتمام هذه الكتب والمعاجم، والموسوعات بجانب (العمران)، فقد تميزت أكثر موادها بأنها اعتمدت على عنصر (المشاهدة) و(التجربة الشخصية)، وهذا ما يميزها ويجعلها مادة خصبة ومفيدة من الناحية (الأنثروبولوجية)، في دراسة الشعوب والمجتمعات والثقافات الإنسانية.

ومن الدراسات الرائدة والمهمة في هذا المجال؛ دراسة العالم المسلم (البيروني)(362 - 440هـ)⁽⁷⁾ التي تمثل مفاد تجربته الشخصية والميدانية في (الهند) خلال (13 سنة)، وعنوانها ((تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة))، وصف فيها المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وثقافية، مع مقارنتها بمثيلاتها لدى العرب واليونان والفرس، وقد تمخضت هذه الدراسة عن حقائق وقواعد ونظريات مهمة في مجال (الأنثروبولوجيا)، وأكدت ريادة العلماء المسلمين في شتى العلوم، ومنها علم الإنسان.

وكذلك كان لرحلات ابن بطوطة⁽⁸⁾ التي استمرت (25 سنة)، وكتاباته طابع أنثروبولوجي برز لدى وصفه للناس، ومعاشهم، وسلوكياتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وقيمهم. ومن ذلك نذكر مؤلفه الجامع ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار))، التي ظلت موضع تقدير الكثير من العلماء والباحثين عبر العالم الأوروبي.

وكذلك الحال بالنسبة لكتابات ابن خلدون⁽⁹⁾، وبالأخص ((المقدمة)) المستلة من تاريخه المعروف بـ ((العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر))، ورحلات ابن فضلان⁽¹⁰⁾ وابن جبيرة⁽¹¹⁾ وأحمد بن ماجد الملاح⁽¹²⁾ والادريسي وغيرهم..

من مارسوا علمًا أنثروبولوجيًا إسلاميًا، أو بالأحرى كانوا أنثروبولوجيين بالمعنى التقليدي للكلمة، قبل أن يظهر هذا المصطلح بوقت مبكر في أوروبا، في أواخر القرن السادس عشر، حيث كان

يقصد به، دراسة الإنسان من جميع جوانبه الطبيعية والسيكولوجية والاجتماعية، حاملاً بذلك معنى الدراسة المقارنة للجنس البشري.

وعليه فإنّ أسس وأهداف الأنثروبولوجيا الحديثة، قد حققها العلماء المسلمون، قبل أن يصبح المصطلح علماً واختصاصاً تُساق له النظريات، وتُكتب حوله الأبحاث، وتكون له فروع، واختصاصات لدى الغرب، الذي توهّم أنّ الأصول النظرية الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا، ظهرت إبان عصر (التنوير) في أوروبا، أو خلال (عصر النهضة)، حيث تمت الكشوفات الجغرافية، والثقافية، والصناعية الكثيرة داخل أوروبا وخارجها...، وعلى الرغم من اعتراف بعض المفكرين والأنثروبولوجيين الغربيين، بتأثير الفكر الإسلامي وتراثه الحضاري على الغرب، كاهولندي دي بوير، والأمريكي ناتانيلشмит، والمستشرق الألماني فون فيسندنك...، إلّا أنه ساد اتجاه ناكر ومتنكر لهذه الحقيقة التاريخية، من خلال سعيها لختيث نحو طمسها، والتقليل من شأنها.

وقد دَعَم هذا الاتجاه، حركة الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي، مؤكداً عجز المسلمين عن الابتكار والإبداع، وقصور الإسلام عن الإسهام في ركب الحضارة الإنسانية، آية ذلك أنّ الإسلام لم يؤثر في الآراء العلمية لعلمائه بقدر ما أثرت الآراء الأرسطوطاليسية و الأفلاطونية...، وأنّ الاستشهاد بالآيات القرآنية في تلك الأبحاث، لم يكن له علاقة جوهرية بتدليلات أصحابها، الذين لجأوا إليها فقط، لأجل حمل القارئ على الاعتقاد بأنّ أصحاب هذه المصنفات والرسائل، كانوا على اتفاق مع نصوص القرآن، ومنهم من قال: أنّ علماء الأمة القدامى تحرروا من أصفاد التقاليد الإسلامية، وأنهم حرّروا كذلك ذهنياتهم من القيود الفكرية، التي ارتبطت في عصرهم بالعقائد العربية...

إنَّ أخذ الأمم الأوروبية للأصول الإسلامية في حقلي التمدن والنظم السياسة من الكتاب والسنة، ظاهر وبيّن، فجميع ما حصلوا عليه بمساعدة العوامل الجغرافية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية...، وما وصل إليه المسلمون في أقل من نصف قرن، كان نتيجة للالتزام بتلك المبادئ واتباعها، وهو ما أحسن الأوروبيون ممارسته، بالاستنباط وحسن الاستخراج،⁽¹⁴⁾ الذي مهّد لهم السبيل إلى الكشف العلمية الجديدة، التي شكلت الطلائع الأولى لحضارة القرنين التاسع عشر، والعشرين...⁽¹³⁾ وهذا ما يؤكده المؤرخون الانجليز "...فكذلك الصليبيون، خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم و المعرفة."⁽¹⁵⁾

ومع انطلاق (الأنثروبولوجيا) في ستينيات القرن العشرين؛ أخذت في التبلور شيئاً فشيئاً، حتى وصلت إلى أن تكون علماً مستقلاً له خصوصيته ومعامله وأهدافه، لذا فقد شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها لتصبح كياناً أكاديمياً، ومهنة لدالكثير من العلماء..

وإذا كان علم الإنسان لدى الغرب؛ قد ظل رديحاً من الزمن، أسير نظرة ثقافية محدودة إلى الحقائق والإنسان، حتى أنّه لم يكن يعرف معنى الإنسان إلّا من خلال الرؤية الثقافية الغربية القاصرة؛ التي لا مصدر لتكوينها إلا الوجود الحسّي، فإنّ الوحي الإلهي، قد كان دوماً أهم مصدر من مصادر المعرفة والثقافة لدى المسلمين بشكل عام، والفكر الأنثروبولوجي الإسلامي بشكل خاص.

فالبيروني _مثلاً_ نشأ فيوسط بحث على طلب العلم، ويدفع إلى التعلم، فحفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه، والحديث النبوي الشريف، _كغيره من طلاب العلم الذين يبدؤون حياتهم العلمية_ وهو لا يزال في (بيرون)، قبل أن يتجه إلى دراسة العلوم الطبيعية والرياضيات والفلك والفلسفة،

التي وجد في نفسه ميلاً لها، وكذلك ابن بطوطة حفظ القرآن الكريم، ودرس العلوم الدينية، وفي مقدمتها الفقه، فشبَّ تقياً، ورعاً، ولكنه لم يُتِمَّ دراسة الفقه بسبب رغبته في السفر و الترحال.

كما انكب ابن خلدون على حفظ القرآن الكريم، ودراسة القراءات، وعلوم التفسير، والحديث، فكان أحد العلماء الراسخين في علم الحديث، وأحد فقهاء المالكية المعدودين، بل ونجده يعتمد بوعي كامل على القرآن والسنة، وقصص الأنبياء اعتماداً مباشراً، وهو يتحدث في الفكر التاريخي، أو العمراني، أو السياسي، كما كان لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام في شؤون الحياة، مكانة متميزة في استشهاداته، واقتباساته، وقياساته، فكان على وعي تام بالسنة والأثر.

ولعله كان أكثر الذين شجعوا الباحث على امتلاء من الشرعيات، والاطلاع على التفسير والفقه، قبل النظر في بعض الحقول المعرفية، لئلا يضل عقله ويتوه في مجاهل الفكر المجرد، لأنَّ الشرع يرد العقل إلى البسيط لا إلى المعقد، وإلى التجريب لا إلى التجريد.

فمن البديهي الذي لا يحتاج إلى دليل ملموس، أن هؤلاء المفكرين لم ينفصلوا(في إطارهم العلمي والفكري) عن الأرضية الإسلامية الثقافية والحضارية بشكل عام، وعن رموز الحضارة الإسلامية الذين سبقوهم، وأحسنوا التعبير عن الحقائق الإسلامية بشكل خاص.

لذا كانت تفسيراتهم ونظرياتهم الأنثروبولوجية، تنبع بامتياز من رحم الدين الإسلامي الأصيل، الذي أساسه (القرآن الكريم) و(الأحاديث النبوية)، آية ذلك أنهم اتخذوا من القرآن والحديث مصدراً ومنطلقاً يؤسس لكل ما يتعلق ببني الإنسان، ومن قبيل ذلك إبطال الكثير من النظريات اللادينية كنظرية النشوء والارتقاء، أو ما يسم بقضوية التطور في الأنواع، التي تصدى لها أحمد بن مسكويه في

كتابات، وابن خلدون الذي ناقشها في مقدمته، موضحاً أن الإنسان بطبعه المدني لا يستطيع العيش بمعزل عن أبناء جنسه.

كما قام الرّحالة المسلمون برحلاتهم في أرجاء المعمورة، ودراسة شعوبها المختلفة، وتسجيل كل شيء عنها، حسب مفردات منهج الأنثروبولوجيا الحديث، اهتداءً بالنص القرآني ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: 20).

فمما لا يدركه بعض الباحثين الغربيين، أن الكثير من الأفكار والتفسيرات والنظريات والآراء الأنثروبولوجية والمعلومات الإثنوغرافية..، التي استطاع روادنا الأوائل التوصل إليها، كانت وفق منهج إسلامي أصيل، وانبثاقاً عن روح إيمانية حقّة، قبل أي شيء آخر، فابن خلدون والمسعودي والبيروني وغيرهم من الموسوعيين العظماء، الذين نبغوا في تخصصات شتى، مزجوا بين العلوم الشرعية، والإنسانية، والطبيعية، ورأوها كعلوم إسلامية. بيد أن الخطأ كما يرى بعض الباحثين يتأتى من توجيه آرائهم، وتقويم أفكارهم، لدى تجاهل هذه ((الحقيقة الإسلامية الموسوعية)) لدى هؤلاء الرواد، فأبي محاولة للنظر لهم بعيداً عن انتماء عقولهم للمنهجية الإسلامية القرآنية؛ هي محاولة بعيدة كل البعد عن جادة الصواب. وما أكثرها الدراسات الغربية، التي تجاهلت هذه الحقيقة، ونظرت إلى ابن خلدون والبيروني والمسعودي ورموز الحضارة الإسلامية بمنظار معين، محاولة نزع هذا الانتماء عنهم، وإلباسهم لبوساً آخر.

وعلى الرغم من رؤية الغرب القاصرة للإسلام، والقراءات المضللة لفكره، فإن نسيج المقدمة والمروج والتحفة..، ألفاظاً ومصطلحات، ولغة واستشهادات، وأفكاراً ومضامين، هو نسيج إسلامي، ينبع من مصادر الإسلام الأساس، ومن الفكر المعتمد الموثق في التراث الإسلامي.

هوامش البحث:

- (1) مدخل إلى علم الإنسان، عيسى الشماس، ط1، اتحاد الكتاب العرب: 13 - 14.
- (2) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (574 - 626 هـ) خطاط، وكاتب، وأديب، من أصل رومي، أهم كتبه ومؤلفاته كتاب (معجم البلدان).
- (3) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد العمري الدمشقي (749 - 700 هـ) مؤرخ وأديب دمشقي، صاحب كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وكتب أخرى.
- (4) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، نسبة إلى قرية النوية بمحافظة بني سويف في مصر (667 - 733 هـ) له العديد من المؤلفات منها موسوعة (نهاية الإرب في فنون العرب) تشتمل على خمسة فنون منها (السماء والآثار العلوية والأرض والآثار السفلية) وهو قسم جغرافي فلكي عام.
- (5) المسعودي: (283 - 346 هـ)، مؤرخ وجغرافي، ورائد نظرية الانحراف الوراثي، عرف بـ (هبرودوتس) العرب، هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود، صاحب كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، و(التنبيه والأشرف)، و(المعارف)، و(عادات الشعوب)، له إسهامات أنثروبولوجية عن الشعوب التي زارها ودونها في (مروج الذهب).
- (6) أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (258 - 284 هـ) كاتب ومؤرخ وجغرافي مسلم، له (تاريخ اليعقوبي، كتاب البلدان).
- (7) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم مسلم أوزبكي (362 - 440 هـ) كاتب ورحالة وفيلسوف وفلكي وجغرافي ورياضي وصيدلي ومؤرخ ومترجم لثقافات الهند.

(8) محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي المغربي المعروف بابن بطوطة (703 - 779 هـ) رحالة ومؤرخ وقاضي وفقه مغربي لقب بأمير الرحالين المسلمين.

(9) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (732 - 808 هـ).

(10) أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي، عالم إسلامي من القرن العاشر الميلادي، كتب وصف رحلته كعضو في سفارة الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة المسمى بـ (الموش بن يطور) في بلاد (بلغار) (الفلجا) (روسيا) سنة (921م)، فيعتبر أقدم وصف أجنبي لروسيا هو ما كتبه ابن فضلان من خلال زيارته لروسيا.

(11) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنايني، بالمعروف بـ (ابن جبير) الأندلسي (641 - 540 هـ) ولد في بلنسية، جغرافي ورحالة وكاتب وشاعر عربي أندلسي يرجع نسبه إلى سعيد بن جبير رضوان الله تعالى عليه.

(12) أحمد بن ماجد النجدي الملاح (821 - 906 هـ) ملاح وجغرافي عربي مسلم، برع في الفلك والجغرافيا، سماه البرتغاليون (أمير البحر)، ويلقب بـ (معلم بحر الهند)، ساعد فاسكو دي جاما في اكتشاف طريق جديد إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح.

(13) رفاعة الطهطاوي، جمال الدين الشيال: 5.

(14) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، النائي، ط1، دار ومكتبة البصائر: 94.

(15) علم التاريخ، هرنشو، تحقيق: عبد الحميد العبادي، ط2، دار الحداثة للطباعة والنشر: 31.